من تراب الطريق! (٢٢٦) أثر المحيط ! (*)

الآدمى فى أى زمان ومكان لا يمارس اختياراته الشخصية إلاّ من خلال ما عرفه نوع معرفة من اختيارات الناس .. سواء المعاصرين له أو الذين سبقوا وسلفوا فى أزمنة ماضية لا سبيل إلى تقصيها أو تقصيهم .

فعقلى أو عقلك منذ بداية البداية لا يعمل إلاّ فى محيط بشرى .. أو بعبارة أكثر دقة فى محيط من اختيارات لعقول بشرية معاصرة أو ماضية .. بعضها قد يكون معروفا له أو قابلا للمعرفة، وغالبها مجهول تماما لايمكن التعرف عليه بأية وسيلة .. فلزوم هذا المحيط البشرى وملازمته لحياة كل آدمى متحضر أو همجى من ساعة مولده إلى لحظة وفاته، هو كلزوم وملازمة المحيط الطبيعى الذى يولد أو يعيش أو يموت فيه لا يفارقه إلاّ بمفارقة الحياة نفسها .

ويبدو أن هذا ملحوظ فى تركيب وسعة وكفايات المخ البشرى، وملحوظ فى تشابه العقول الذى يسمح للزنجى أن يفهم مراد الصينى والأوروبى والتعلم منه، وأن يقرأ الهندى ويتذوق شعر الأمريكى وأدب اليابانى وفولكلور الإسكيمو، ويتيح لكافة أهل الأرض سماع الإذاعات بمختلف اللغات واللهجات وفهمها .. وهذا ملحوظ أيضا فى زيادة استجابة عالم الطبيعة لحسابات الآدميين الرياضية وقواعدهم الفزيائية والكيماوية

(*) المال ٢٠٠٩/٣/١٦

والفلكية وقياساتهم حسب اصطلاحاتهم ورموزهم .. وهو ما يعطى لمسح الآدمى وعقله - بقدر ما - طابعا كونياً يتجاوز موضع الإنسان على هذه الأرض وانتسابه إلى أشقائه فى عالم الحيوان .

وفردية اختيار الآدمى دائما فردية اقتطاف من حقل أو حقول أعم داخله وخارجه، وقد تجرى مع الاقتطاف إضافات تضيفها اجتهادات واستعدادات ومواهب خاصة فى الفرد .

وإذن فكل إنتاج لفرد أياً كان وكانت موهبته هو، أو عبقريته هو، أو نعمة الله عليه هو - معظمه من ذلك الاقتطاف أى من ذلك الحقل الأعم الماضى والمعاصر .

فالبشرية لها قادة بلا شك .. نعرف بعضهم ونجهل معظمهم، لكن ليس لها صناع أو صانعون معينون صنعوا أو يصنعون اختياراتها .. فهذه غير قابلة لتحديد المصدر بأى يقين . وهو أمر يشهد به بشدة - اختلاف التاريخ والنظم والعقائد والحضارات .

هذا وقد لفتت قوة تأثير ذلك المحيط البشرى فى تقدم المعرفة - لفتت أنظار الآدميين من قديم، ودعتهم إلى إنشاء المدارس والمعاهد والمكتبات والمراصد، ثم دعتهم فى العصر الحديث إلى استخدامها بطريقة منظمة دائمة فى حل المشاكل المعينة التى تبدو أكبر أو أعجل من أن تترك للاختيارات الفردية .. فجمعت الكفايات فى الموضوع الواحد أو فى المواضيع المختلفة المتصلة .. جمعت هذه الكفايات لتعمل معاً أو بالتعاون - فى معامل أبحاث أو مؤسسات مستقلة أو تابعة لجامعات أو لشركات، وزودت بالأموال الضخمة التى تلزمها والتى لا قبل للأفراد بها . وقد أنتج ذلك نتائجه الهائلة فى العلوم والفنون والتقنيات والصناعات، وإليه يرجع ما نرى الآن صداه فى حياة الناس !